

## ٢ - محمد ديب

قلت فيما سبق إن الأدب الجزائري أدب جديد ، ذو خصائص قومية بارزة ، يستمد ذاتيته ونسغه من البيئة التي يعيش فيها الشعب الجزائري ، ولم يحل الاستعمار الذي ناء بكامله البغيض على الجزائر دون بروز هذه الخصائص . وهذا الأدب وإن كتب بلغة فرنسية فهو يعبر من وراء الحجاب اللغوي عن أعمتى الأسس الروحية والاجتماعية التي يقوم عليها ماضى الشعب الجزائري وحاضره ، كما يعكس بوضوح صراع هذا الحاضر مع الأوضاع الاستعمارية التي تصده عن البروز وتقف دون نموه .

نحن الآن مع كاتب جزائري آخر هو محمد ديب مؤلف رواية « البيت الكبير » ولد في تلمسان في ٢١ تموز سنة ١٩٢٠ ، وبعد أن درس في مسقط رأسه ثم في مدينة وُجدة زاول عدة مهن مكنته من الاتصال بالطبقات الشعبية الكادحة ، والاطلاع على نفسيات أهلها وأحوالهم المعاشية ، فقد عمل صانع سجاد ،

ومحاسباً في محل تجارى ، ثم معلماً وصحفيًا إلى أن انقطع للأدب نهائياً فكانت باكورة أعماله الأدبية رواية « البيت الكبير » هي من أروع الروايات في تصوير الحياة الجزائرية في بؤسها وشقائها وتناحر ناسها وآماخم وإنسانيتهم وقساوتهم ، وتجرى حوادثها سنة ١٩٣٩ ومركزة حول البطل عمر وهو صبي دون البلوغ يعيش مع أمه الأرملة عانية في بيت كبير للأجرة تقطن غرفه أسر العمال الفقراء ، وهو أشبه بخلية النحل يتكديس أفراد كل أسرة في غرفة واحدة ، وتسوده في النهار ضوضاء الأولاد وصراخهم ونداءات النساء ولغظهن وثرثرتهن وحركتهن المستمرة وفوق هذا فقد « احتجزت غرف الدار في الليل عدداً كبيراً من الأطفال حتى إذا طلع الصباح قذفت بهم إلى صحن الدار في فوضى وضوضاء لا مثيل لهما ، فالأطفال ذوو اللعاب السائل ، والوجوه اللامعة من أثر المخاط يمرون واحداً واحداً ، وكان من لا يستطيع منهم المشى يزحف رافعاً استه إلى العلاء ، وكانوا يبكون ويزأرون جميعاً ، ولم تكن الأمهات ولا بقية النساء يرين فائدة في الاهتمام بالأمر. »

ولم يقف المؤلف في تصوير حياة سكان الدار اليومية موقف المراقب أو الملاحظ الحيادي بل أشركنا من خلال

الولد عمر ، وعمر هو المؤلف في صغره ، الذي يعيش مع أمه عانية وأختيه عيوشة ومريم في غرفة واحدة عيشة بؤس رهيب يسيطر عليهم شبح الجوع والحرمات واليأس من الغد حتى إن عانية كانت تخاطب ابنها في ساعة من ساعات ضجرها وبرمها من العيش قائلة : « هذا كل ما تركه لنا أبوك الفاشل ، الشقاء ، ولقد غيب وجهه في الأرض وأنهالت على جميع أنواع البؤس ، فكانت نصيبي في حياتي كلها ، إنه الآن هادئ في قبره . لم يفكر يوماً بإدخار شيء من المال فلصقتم بي كما يلصق العلق . لقد كنت سخيفة ، كان الأجدد بي أن أمجركم في الأزقة وأفر إلى إحدى الجبال الجرداء ! »

ولم يتعمد المؤلف في النواحي الاجتماعية والنفسية التي يبدو على ضوءها أشخاص روايته طلب الإصلاح والتخفيف من آلام مواطنيه بل اكتفى ببسط أمام أعين القارئ لوحات متتابعة بلغ من مهارته في تصويرها أنها ترسخ في الذهن حتى يصعب على المرء الخلاص منها ، فيشعر بعد الانتهاء من مطالعة الرواية بغثيان عاطفي ، مبهم ، ثائر ، يخالطه الأسى والإشفاق على هذا الشعب المعذب يخلف بعده شعوراً بالنقمة والسخط

على الاستعمار والمستعمرين أصل هذا البلاء ، وسبب هذه الرزايا المحزنة .

والرواية على صغر حجمها تجمعت فيها صور ولوحات عن جميع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي خلقتها الأوضاع الاستعمارية في الجزائر . كحاربة اللغة العربية التي هي سلاح القومية . وعمليات التثقل الرامية إلى ذوبان الشخصية الجزائرية في المحيط الفرنسي ، وسياسة الإفقار والتجهيل التي هي من أبرز صفات الاستعمار الفرنسي كل هذا يؤديه محمد ديب في سطور قليلة بليغة دقيقة لا نجد مثيلاً إلا عند كبار الروائيين . مثال على ذلك وصفه درس الأخلاق الذي يلقيه المعلم حسن على تلاميذه الصغار ؛ فقد سأئهم مرة ما هو الوطن ؟

فلم يفهم الصغار ما تعنيه هذه الكلمة الغريبة التي بقيت بعد السؤال « كأنها معلقة في الفضاء تتأرجح » فما كان من أحد التلاميذ الراسبين إلا أن رفع أصبعه مجيباً ؛ إن فرنسا هي وطننا الأم !

وكان الجواب وحده سبباً لسلسلة من التساؤلات في نفس الولد عمر يعالجها بعقليته البسيطة وغريزته العفوية ، فهو يعلم

أن فرنسا عاصمتها باريس ، وأن هؤلاء الفرنسيين الذين يشاهدتهم في المدينة يأتون من فرنسا ، وهم لذلك يركبون البحر في الغدو والرواح فكيف يصح والحالة هذه أن تكون فرنسا أمه ، وأمها هي عانية ، وهي في البيت وليس له أمان ، إذن لقد اكتشف الكذبة : ففرنسا ليست أمه ، وهكذا فقد كان الصغار يرغمون على تعلم الأكاذيب لينجوا من القصاص والضرب بقضبان الزيتون !

ولكن المعلم حسن لم يكن ليترك هذه الفرصة تمر دون أن يفهم تلاميذه في شيء من العناء والخرج أن الوطن هو أرض الآباء ، وهو البلد الذي استوطنه أهله منذ عدة أجيال ، حتى إذا جاءه الأجانب من الخارج ليحتلوه أصبح الوطن في خطر ، فهؤلاء الأجانب أعداء يجب على أهل البلاد أن ينتصبوا في وجوههم ليردوهم من حيث أتوا ولو أدى هذا إلى التضحية بحيواتهم جميعاً ، وأن الوطنيين هم الذين يحبون وطنهم ، ويعملون لخيره وصالحه !

وتجربى حياة الولد عمر كغيرها من حيوات أشباهه من الأولاد المغمورين الهزيلين الحفاة العراة « ذوى الشفاه السود وأعضاء العنكبوت والعيون المتوهجة بنار الحمى ، يملأون أزقة

الجزائر الضيقة ودروبها المظلمة لا هدف لهم في الحياة ،  
 ولا أمل في العيش ، ألفوا الفقر والفهم ، ولصقوا بالشقاء ولصق  
 بهر تمر بهم أيام يتضورون بها جوعاً فلا تجد عانية أم عمر  
 لإسكات هذا الجوع في أحشاء بنينا بدا من المراوغة ،  
 فتعلمهم بالقدر التي تغلى على النار ، وليس فيها سوى الماء ،  
 كما كانت تفعل تماماً العجوز زمن عمر بن الخطاب فينام  
 الأولاد بعد أن أحرصهم الإعياء ، وأرخص النوم بثقله الرصاصي  
 أجفانهم ، ناموا لأن صبرهم في انتظار الطعام قد نفذ ، ولأن  
 أبدانهم الهزيلة لم تعد تستطيع المقاومة طويلاً !

إن هذا الجوع الذي يترأى في كل صفحة من صفحات  
 الرواية ذاته الذي يجعل الأم تصيح بلسان الشعب الجزائري :  
 « نحن فقراء ، ولكن لماذا نحن فقراء ، إن أمها لم تكن تجيبها  
 على سؤالها ، وقال بعضهم إن هذا مشيئة القدر ، وقال آخرون :  
 إن الله وحده يعلم لماذا نحن فقراء ، ولكن هل هذا يكفي ،  
 ولعل الأشخاص الكبار يعرفون الجواب » !

وتثور مشاكل الواقع الجزائري الأليم من خلال المناضل  
 الذي أسماه المؤلف حامد سراج ويظن أنه محمد ديب بعد بلوغه  
 العشرين ، ينطق باسمه ، ويعبر عن آرائه وأفكاره الثورية

تجاه ما يعانيه الجزائريون من الظلم الاجتماعي ، إن حامد سراج  
الذي لاحقه رجال الأمن من مكان إلى مكان ، وفاجأوا البيت  
الكبير مرات للقبض عليه مروّعين النساء والأطفال هو نفسه -  
الذي وقف خطيباً في العمال الزراعيين الذين جاءوا من أقاصي  
الجزائر لسماعه في بلد يسوده الإرهاب والنظام البوليسي :  
« إن عمال الأرض لا يستطيعون العيش بهذه الأجور التي  
يقبضونها ، فهم سيتظاهرون بقوة ، يجب أن نضع حدا لهذا  
الشقاء ، إن العمال الزراعيين هم أولى ضحايا الاستغلال  
المنتشر في أنحاء البلاد ، إن أجر العامل عشرة فرنكات يوميا  
وهو أمر غير مقبول ، يجب أن يطرأ تحسن فوري على حياة  
العمال الزراعيين ، ويجب العمل بقوة لبلوغ هذا الهدف  
إن العمال المتحدين يعرفون كيف ينتزعون النصر من المستعمرين  
وحكومة الحاكم العام ، وهم مستعدون أبداً للنضال » .  
وكما أن حالة العمال في المدن لم تكن بأحسن من حالة  
عمال الريف ، ففي الرواية مقاطع تصور هؤلاء فريسة للبطالة  
المتفشية بين أرباب جميع المهن وهم كلهم يعانون الجوع  
والحرمان ، ويشغل نساؤهم وأولادهم أيضاً ولكن دون جدوى  
وهذا ما جعل أم عمر تصيح قائلة : « . . . حتى ولو عملنا طوال

الحياة لما بقي لنا في نهايتها سوى ملاجئ العجزة والشحاذة وإذا جاء الموت قبل ذلك حمدنا مجيئه ، فالموت لنا غطاء من ذهب ، وإذا لم يأت هذا الموت أو لم يرض بنا ، حتى إذا عجزنا عن العمل وظللنا على قيد الحياة فتلك هي المصيبة الكبرى ، وإذا لم يسع إلينا القبر حينئذ سعينا إليه ، وإذا استطعنا شربنا بالموت ، لقد عشنا على هذه الأرض وانتهى كل شيء فنكون بذلك قد شهدنا شقاءنا إذ لم يبق شيء يغرينا في هذه الدنيا . »

وفي الرواية صور فنية رائعة تدل على أصالة الكاتب ودقة ملاحظته وامتلاكه ناصية التعبير عن الحقيقة الإنسانية والاجتماعية التي يحياها أبطال روايته الممثلين لأغلبية الشعب الجزائري ومن هذه الصور الموفقة قوله في وصف البيت الكبير في فصل قائل : « كان الهواء في الخارج يهتز فيتساقط كالرماد الأشهب ، كل شيء قد غسل في جحيم من النور ، وكان الأولاد يصطدمون في كل لحظة بالحواجر التي نصبها حرّ آب الحاف ، وكانت السماء في حالة غليان تقيء عجيجاً من الذباب تجلبه الروائح المنبعثة من الحفر ، وكانت هذه النهارات تقذف الحى بروائح جيفية منتنة قوية ، عنيدة لا تستطيع ضربات الهواء ولا هبوط الحرارة في الليل تبديدها . »

ومن قوله في وصف بطله عمر النائم في فراشه : « وكان  
عمر لا يفتأ عن التقلب في فراشه ، وقد استولى عليه الأرق ،  
وكانت ثيابه تزعجه ، وفي المزيج بدأت الحكمة تنتاب كل  
جسمه ، فكانت الأظافر تكشط طويلا البطن والأليتين  
والفخذين وكان البق عندما تسيطر الظلمة ينساب من مخبئه  
متسللا إلى فرش النائمين ومع أن الحيطان كانت مطلية بالكلس  
فكان يرى كثيراً منه ، وكانت الأم عانية تضيء الغرفة مراراً  
في الليل وتسحق عدداً منه ، وفي النهار كنت ترى خيوطاً سمراء  
طويلة تركتها الأصبع التي قعست البق على الحائط . »

وقوله في وصف قرية في أعلى الجبل : « يسكن القرويون  
في حفر في الجبل ؛ والرجال والنساء والأطفال والحيوانات ،  
وتقع مقبرة القرية فوق رؤوسهم على المرتفع ، وهكذا يسكن  
الأحياء تحت الأموات . »

وقوله : « وكان ضوء المصباح الكهربائي الضعيف ،  
المجرد عن العاكس ، المعلق في السقف يثقب الليل . »  
تلك هي لمحة عن رواية البيت الكبير التي جعل منها  
محمد ديب رواية الجزائر القومية والتي حقق بها رسالة الأديب  
الذي يكشف عن الحقائق التي يعيش عليها الشعب الجزائري

ولعل في إظهار هذه الحقائق الاجتماعية إنارة للطريق الثورية التي سلكتها الجزائر نحو حياة أفضل وعيش أحسن .

إن محمد ديب أديب جزائري فذ ، وقد ظهرت بعض نواحي عبقريته من خلال رواية « البيت الكبير » التي صور بها شعب الجزائر في المدن ، ويظهر أن محمد ديب عازم على التوسع في تصوير الحياة الشعبية الجزائرية ، والغوص في أعماقها المجهولة ، فقد أتبع روايته الأولى رواية أخرى أسماها « الحريق » صور بها حياة الريف ، وبؤس الفلاحين والعمال الزراعيين ومظاهر صراعهم مع المستعمرين الذين انتزعوا منهم أرضهم جوراً ، وحرموهم القوت الضروري بعد أن جعلوا منهم أجراء ، مساكين ، محرومين من الحد الأدنى للحقوق الإنسانية .

وقد جعل محمد ديب قرية « بني بوبالين » مسرحاً لروايته ، وهي قرية جبلية تشرف على سهول يسكنها المستعمرون ، وتجرى الحوادث بين المنطقة الجبلية الجرداء التي يقطنها الفلاحون المكثرون ، والسهول الحصبة التي يستغلها وينعم بخيراتها المستعمرون . فالمنطقتان إذن تمثلان الصراع بين الفقر والغنى ، والحرمان واليسر ، والمغتصب المغلوب على أمره والغاصب المتهادي في عدوانه . ومظاهر البؤس وإن تعددت في الريف

فهي نتيجة لعدة واحدة هي الاستعمار وما يجره في أثره من ظلم  
ومأس . وإذا كان الجزائري المدني هو ذلك الرجل الذي يتضور  
جوعاً ، الحافي القدمين ، الذي لا يستر جسمه سوى أسنمال  
قذرة ، فإن الفلاح الجزائري أسوأ منه حالاً ، وإن تغير الوسط  
بعض الشيء ، ولذا فإن الولد عمر بطل رواية « البيت الكبير »  
الذي نقله المؤلف إلى الريف ليتمرس بهذه الحياة الحشنة القاسية  
لم يعجب من بؤسه ولم يتمرد عليه عندما شاهد أمثاله من أطفال  
الريف الذين يشبهون كما يقول محمد ديب . « الجراد لهماهم  
وضعفهم » ، فإن « ثيابهم عبارة عن خليط من الخلق المجموعة ،  
يننعلون في أرجلهم جلود الخراف مشدودة بخيطان « المصيص » ،  
ويركضون حفاة في أغلب الأحيان ، تفتحت عيونهم ذوات  
الأحداق السمراء والخضراء على أرض جرداء تركت لهم ،  
يهيمون على وجوههم في شكل عصابات ، ويغمهم المرح  
وسط الوحل وغبار الطرقات ، وإذا كان يغلب على أطفال  
المدن الحفة والحدة والطيش فإن أطفال الريف رُضاء ، قد  
أكسبتهم عشرتهم للحيوانات في قراهم النائبة المنعزلة انكماشاً  
وسكينة وفهماً أكبر للشقاء ! » .

وقد أولع محمد ديب بالتصوير ، وروايته ملأى باللمحات

السريعة الخاطفة تعبر كل واحدة منها عن فكرة اجتماعية أو صورة واقعية، أو خاطرة نفسية، ولعل من أجمل صوره تلك المقارنة التي عقدها بين الأولاد الجزائريين البؤساء المشردين وبين أولاد الأوربيين المستعمرين القاطنين في الجزائر، وكان المؤلف مسوقاً بحكم بطل روايته الولد عمر إلى الإكثار من وصف الأولاد والأطفال وسرد حوادثهم لأن الطفولة التعمسة هي من أهم المشاهد في تلك البلاد حيث حرم تسعون بالمائة من نعمة العلم والنور قال: « كان الأولاد الجزائريون يلعبون في شكل عصابات صغيرة وهم دوماً على أهبة الفرار أمام رجال الشرطة الذين يطاردونهم في كل مكان، قد ألبسوا أردية عتيقة، بالية، ذوات أكمام مشمرة عند المفصلين وفي أرجلهم أحذية رجالية، صفر الوجوه، عيونهم سوداء، ينظرون باستغراب إلى الناس والأشياء، هم نشيطون لا يفتأون عن التشاجر وملاحقة بعضهم بعضاً، وبما أنهم مكرهون ومضطهدون من قبل المدنيين وجب عليهم الفرار في كل لحظة يتبعهم غضب الناس، إنهم يمتحنون الشحاذة وفي بعض الأحيان النشل والسرقة، ينظرون بعيون شاخصة ثابتة إلى الرجال والنساء والأولاد الأوربيين، ينظرون إليهم بل يحملون بانتباه متجميع

مما يظهرهم أسنّ مما هم عليه في الحقيقة ، ينظرون بصورة غريزية إلى ثياب الأوربيين الجديدة وأجسامهم النظيفة السليمة التي لم تعرف الجوع ، تبدو عليهم مظاهر السعادة والشعور بالطمأنينة والأمن والصيانة ، فيهم صقات الأدب واللفظ والتهذيب التي يبرزونها كثياب العيد والأطفال الأوربيون يخشون عادة أطفال العرب ، وإذا أرادت أمهاتهم أن يخفهم صرخن مهددات « سأنادي العربي » !

ولاشك في أن الأطفال الجزائريين ذوو حيوية مبكرة لا تلبث أن تنطفيء رويداً على مر السنين يقتلها سياق البؤس والرتيب والجهل والتعب المتراكم ولعله أيضاً إدمان الحمرة والسجون .

وقد يمكن أن يكونوا غير هؤلاء . . . « ويستطرد محمد ديب في وصف نفسية الأطفال المحرومين فيقول : « وهكذا فإنهم سريعو الحركة ، صامتون قد انتصب أمامهم الآن عالم من القيود والسدود الذي يشعرون بقوة دون أن يفهموا معناه ، فهم يظهرون بغتة من أطراف المدينة تحركهم رغائب غامضة مبهمة . . . فإن أقل حاجة يقذف بها إليهم كالعلب الفارغة ، واللعب المكسورة والجرائد المصورة التي لا قيمة لها تجعلهم

يغرقون في إعجاب ذهولي ، فيتنازعون ملكيتها بضراوة تخلع على هذه الأشياء التافهة قيمة الأشياء النادرة المثالية ، وكل من يحتفظ بالحاجة بعد معركة أخيرة يحق له أن يرفع غنيمته رمزاً للنصر» .

أما الفلاحات الجزائريات في قرية بني بوبلين فهن « ذوات بشرة سمراء ضاربة إلى الشقرة كالعسل أو الذهب ، ولكن هذا لا يدوم طويلاً . . . فسرعان ما تغدو أجسامهن كأجسام الحمالين ، تعلو أرجلهن التي تطأ الأرض شقوق عميقة ، يجرون أجساماً هزيلة تبرز منها الأضلاع . . . هذا مع الجوع الهائل الذي يخالط نظراتهن » .

والرواية من خلال الحوادث والأوصاف واللوحات الفنية ذات هدف اجتماعي يظهر إحساس الفلاحين والعمال الزراعيين بحالتهم البائسة ، وبدء الوعي عندهم الذي أخذ في أول الأمر شكل تدمير وشعور غامض بالظلم ، هذا ويعمل على إيقاظ الفلاحين ، وإنارة السبيل أمامهم وتجسيد أمانيتهم وتبلور رعايتهم المهمة التي تصطرع في نفوسهم ، والتمهيد لحياة أفضل وأحسن ، وتوضيح نواحي الظلم الاجتماعي الذي يعانون أقول : يعمل على خلق كل هذا مناضلون ذوو تجارب ونضج

وإيمان بحبوية وإمكانيات الشعب الجزائري في زحزحة المستعمرين عن مواقعهم . ففي الرواية تسيطر شخصيات حامد السراج الداعية الاشتراكي الذي يلاحقه المستعمرون ، والكوماندار ، وابن أيوب وغيرهم ، فهم الذين يدفعون بني قومهم إلى التمرد والمطالبة بحقوقهم واسترداد ما أخذ منهم جوراً ، ولكل من هذه الشخصيات أسلوبه وطريقته وطبعته وأفكاره ولكنهم جميعاً يتلاقون في نقطة واحدة هي إيقاظ الروح الجزائرية التي تراكت عليها منذ سنة ١٨٣٠ رواسب وطبقات كثيفة استعمارية كادت تودي بمعالمها القومية وشعورها الوطني .

ومن الطريف أن يتعرف القارئ من خلال هؤلاء الأشخاص إلى العضلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقومية التي خلقتها الاستعمار بقصد أو دون قصد في الجزائر ، فكل واحد من هؤلاء يحمل بين جنبه المأساة الجزائرية في شقيها المادي والإنساني فالكوماندار - وهو لقبه الذي اكتسبه من الجندية فحل محل اسمه الأصلي الذي نسيه الناس - شخصية محببة تمثل التوثب والأمل بالخلاص ، والكوماندار كسيح فقد ساقه في الحرب العالمية الأولى وقد « لف ما تبقى من ساقه المبتورتين إلى الركبتين بنحرق كثيفة حتى صارتا تشبهان في سماكتهما

عمودين رخاميين مبتورين « إن الكوماندار هذا هو صاحب الحلم الغريب الذى قصه على الطفل عمر قائلاً : « كان القمر يحرف الزبد من أعلى الفجوات التى تفتخر أفواهها بين الخضاب ، حتى خيل للناس أن الوقت ليس بليل ، فقد كان الهواء والأرض يتألقان حتى صار من الممكن تمييز كل باقة من باقات الحشيش ، وكل مدرة من مدر الأرض ، فكان الهواء والأرض والليل تتنفس ببطء ، وفجأة سمع وقع حوافر تضرب الأرض فيرن صداها في القرية ، فانتصب الفلاحون مذعورين ، واقتربت الضجة أكثر فأكثر حتى غدت كأنها رعد ينتقل من أول القرية إلى أقصاها وهرب النوم من عيون الفلاحين ، ولحظ الذين جلسوا على أبواب أكواخهم تحت جدران المنصورة حصاناً أبيض لا سرج له ولا لحام ولا فارس يعاوه تهتز لبدته من شدة العدو . . . واختفى الحصان العجيب فى الظلام ، وبعد دقائق عاد العدو من جديد بطرق الليل ، وظهر الحصان عند أسوار المنصورة وبعد أن طاف حول المدينة القديمة اختفى من جديد ، وكانت الأبراج العربية التى قاومت الحراب تلتقى بخيالاتها القوية فى الضياء الليلي ، ثم عاد الحصان يدور حول المدينة القديمة ، وعند مروره طأطأ الفلاحون رؤوسهم واعتري

قلوبهم الاضطراب والكآبة ولكنهم لم يرتجفوا بل تذكروا أولادهم ونساءهم قائلين : « أَعْدُ يا حصان الشعب في الليل ، في ساعات الخير والنكد ، في ضوء الشمس والقمر » .

ويتابع الكوماندار قوله : « ومنذ ذلك الحين يستيقظ هؤلاء الذين يحاولون الإفلات من مصيرهم أو الذين يترددون في التفتيش عن أرضهم ، أو الذين يريدون أن يتحرروا أو يحرروا أرضهم إن جنون الحرية قد ارتفع إلى أدمغتهم ، من ذا الذي ينقذك أيتها الجزائر ، إن شعبك يمشى على الدروب سائلا عنك ! » .

وإذا نصتنا إلى ما يقول بقية أبطال الرواية أمثال حامد السراج الذي أوجد في الأذهان فكرة الثورة والاتحاد في وجه المعتصب ، وابن أيوب الذي صاح وهو قابض على حفنة من أرض الجزائر : « سيأتي يوم يحاسبنا فيه أولادنا حساباً عسيراً ، وسيهبون لصب اللعنات علينا ، إنى أرى من خلال المستقبل أحفادي يكيلون اللعنات لجدهم ، إنى أراهم يتقدمون نحوى صائحين : الله أكبر ، الله أكبر ! » .

وإبن أيوب نفسه يخاطب أهل قريته قائلا : « ألسنا غرباء في بلادنا ، والله يا أصدقائي إنى أكلمكم كما أفكر ، إنهم

يظنون أننا نحن الغرباء ، والغرباء هم أهل البلاد ، لقد استولوا على كل شيء ويريدون أن يصبحوا أسياداً أيضاً ، وجعلوا من واجبهم الحق علينا ، نعم إنهم يجيدون فن الزراعة ، ولكن هذا لا ينبغي كون هذه الأرض ملكاً لنا ، أفلا تعتقدون أننا قد حشرنا في سجن وأخذوا برقابتنا حتى استحال علينا التنفس . . . .  
وفي كل يوم ينتزعون قطعة من لحمنا فيبقى مكانها جرح عميق تسيل منه حياتنا ، هم يصرعوننا رويداً رويداً ، يا جيرانى موتوا وأنتم تعملون ، ولا تتركوا أرضكم ، ولا تهجروا شبراً منها لأنكم إن هجرتموها هجرتكم وستبقون أنتم وأولادكم أشقياء مدى الحياة » .

إن هذه الأقوال وغيرها التي تشير إلى حنين الجزائريين إلى أرضهم المغتصبة وتمسكهم بها إنما تعبر عن معضلة كبرى نشأت بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر واستيطانهم تلك البلاد واللجوء إلى المصادرة الجبرية وتفكيك الملكية الفردية وتبديد الأوقاف وتشجيع الهجرة الاستعمارية ، ولكن هذه الأساليب وإن أدت إلى تجريد الجزائريين من مصدر قوتهم فقد خلفت في نفوسهم روح المقاومة يصفها أحد أبطال الرواية على بن رباح الذي خاطب المعتدلين من قومه قائلاً : « إن

الرجال عندنا صنعوا من معدن عال كريم ، كما أن القلب  
سليم من كل شائبة إن جميع أنواع البؤس والشقاء التي عرفناها  
لم تنل منا ، وليس هذا اليوم الذي تطأطئ فيه رؤوسنا ، إن  
كل رجل حولك هو مخزن بارود تكفيه شرارة لينفجر ! » .

إن هذه الأفكار التي سرت بين الفلاحين سريان النار  
في الحشيم قد أوجدت أسساً للثورة والوعى الاجتماعى ، وبدأ  
الفلاحون يشكون فيما بينهم من ضالة الأجور التي يدفعها  
المستعمرون الذين جمعوا ثروات البلاد في أيديهم ، ثم أخذ  
التدمير في التوسع حتى عم الريف « جو لا يوحى بالطمأنينة  
والهدوء » فوق إضراب العمال الذين يعملون في المزارع الفرنسية  
فجرد المستعمرون ومن ورائهم الحكومة قوى الأمن لمطاردة  
المضربين وإرهابهم والتنكيل بهم وفي الرواية مقاطع رائعة عن  
موقف المستعمرين من أهل البلاد ، وعن العقلية الاستعمارية  
وعلاقة المستعمر بالمستعمر القائمة على الازدراء والبغض والحقد .  
كما أن في الرواية لوحات أدبية فنية تثبت أصالة الكاتب  
ودقة ملاحظته وتجميده اللمحات الدقيقة الآبقة المعبرة عن  
نفسية أصحابها في أسلوب مكثف رشيق يدل على امتلاكه  
ناصية اللغة الفرنسية .

فمن الصور المنتقاة قوله في وصف نسوة يتشاجرن بشدة  
وضجيج : « كانت النسوة يتكلمن كلهن معاً ، كأنما نبت  
لكل واحدة في وجهها فم إضافي ! » .

وقوله في وصف الليل في الريف : « لقد انتصب الليل  
في كل ناحية ، فكان كيلاً تاماً لا شق فيه ، ولا يشبه الليالي  
التي نراها في المدن ، فهو هنا يحتمل الكون فيبدو كشيء موحش  
جامد ، ليس فيه من معالم الحياة إلا صراخ الحيوانات أو زئير  
الأرض ، وكان مصباح الزيت الذي أشعله الفلاحون بمثابة  
سور هزيل من الضياء ، ولكنه ضوء جاء من عندهم ، فمس  
حواشي الليل ! »

وقوله في وصف المزابل التي يتراكم إليها الفقراء ليجدوا  
ما يأكلون : « وكانت المجموعات البشرية قد جهزت حملات  
حقيقية إلى الأمكنة التي تفرغ فيها عربات البلديات محمولها  
وكنت ترى إلى جوانب هذه المستودعات التي تشكل هضاباً  
جماعات من البشر توهمك بوجود قرى خيالية تفتحت على  
أكوام القمامة كنباتات سامة » .

هذا هو محمد ديب في روايته « الحريق » وهو بذلك  
لا يقل إبداعاً ونبوغاً عن أكبر الروائيين الأوربيين في العصر

الحاضر بله الشرقيين . .

قلت : إن محمد ديب عزم على تصوير حياة الجزائر الاجتماعية في سلسلة من الروايات تهدف كل واحدة منها إلى ناحية من حياة الشعب الجزائري ، وها نحن أولاء نصل بعد « البيت الكبير » و « الحويق » إلى رواية « النساجة » التي صور بها فئة عمال النسيج الجزائريين . وقد ركز روايته في ورشة يعمل بها عدد من العمال وجعل محور الرواية كما في روايته السابقتين الولد عمر الذي تتفتح شخصيته على مظاهر الحياة القاسية التي يحياها بنو قومه ، ومعه أمه « عانية » تلك الأرملة المسكينة التي قضت حياتها في فاقة وجهد وبلاء وصبر على الفقر والحرمات لتعيل أولادها ، وهي في كل ذلك راضية ، مستسلمة لمشيئة الأقدار ، تستمد من هذا التسليم والخضوع قوة على مغالبة الشقاء ، فهي مثال للأم الشجاعة الفقيرة المخلصة لدور الأمومة التي يكثر أمثالها في الطبقات الشعبية وهي ذاتها التي أنطقها محمد ديب بمثل هذه العبارة : « لقد ولدنا على هذه الأرض اللعينة كما تولد المخازي ، وتغدينا الحثالة ، وهجرنا كما يهجر المنيوذون ، حتى خبزنا فهو أسود سواد الليل الذي يحيط بنا ! » .

تجرى حوادث الرواية سنة ١٩٤٤ إبان الحرب الأخيرة ، ولم تكن إفريقيا الشمالية بمنجى عن شرور هذه الحرب وويلاتها ، فقد ازدادت الحالة الاقتصادية والمادية سوءاً على سوء ، وعم الفقر والقحط ، ووقفت الأحوال ، واشتدت الوطأة على الكادحين وظهر الاستعمار في صورته السوداء الرهيبة .

ومن الطبيعي أن تكون مهنة الحياكة في بلاد مستعمرة كالجزائر كغيرها من المهن في مرحلتها البدائية أولاً ، وأن يكون أربابها في عصر الآلة والمعامل طبقة عمالية فقيرة محرومة تتجسد فيها معاني بؤس الجزائريين وعوزهم . ومن الطبيعي أيضاً أن تكون هذه المهنة مورد رزق لكثير من الأسر ، يتعاطى الرجال الناحية الفنية العملية منها ويعمل النساء في ندف الصوف وغزله ، يعملن كعانية أم الولد عمر حين « كانت تجلب جزات من الصوف الملىء بالدهن ، والمثقل بالتراب والمصالة والبعر ، فتنظفها وتحضرها ثم تحمل بعد أيام بقدر ما تسمح لها قوتها رطلاً أو رطلين من هذا الزغب الحليبي إلى سوق الغزل » .

وقد حلا لأحد الكتاب الفرنسيين أن يقارن بين حالة

النساجين في الجزائر وبين نظراتهم في فرنسا فوجد أن أحوال هذه المهنة سنة ١٩٤٤ تشبه تماماً ما كانت عليه في فرنسا منذ مائة عام ، فظروف العمل السيئة واحدة ، وبتؤس العمال واستغلالهم دون شفقة أو رادع من قبل أرباب العمل القساة الجشعين واحدة ، وإهمال الدولة لحقوقهم ورعايتهم واحد ، بل قد استطاع أن يجمع أقوالاً وأوصافاً لكاتب فرنسيين أحرار يصنفون فيها هؤلاء العمال منذ قرن ونيف تطابق ما قاله محمد ديب في وصف مواطنيه ، ولعل أروع ما روى قول الشاعر هوغو عن لسان هؤلاء الكادحين :

منذ طلوع الفجر حتى المساء  
ونحن نقوم دوماً في السجن ذاته  
بنفس الحركة

جالسين القرفصاء تحت أسنان آلة كتيبة  
مستسلمين لعمل مضمّن مرهق  
يمسك العمر بين براثنه  
عمل ينتج الثروة يخلقها البؤس  
أو قول دوبون في أنشودة العمال .

نحن في ثياب رثة نعيش في الخنجر  
وتحت السقائف وفي الخرائب  
نعيش مع البوم ومع اللصوص  
أصدقاء الظلام .

نحن في أقبية مدينة « تلمسان » حيث ورشة المعلم ماهي  
بو عنان ، يعمل النساجون في مكان رطب يهبط إليه المرء في  
بضع درجات ، يتسرب إليه النور من كوة صغيرة في أعلى  
الجائط حتى بات القبو في شبه ظلام ، وبات من يعمل فيه  
« كالبوم عششت في قبو نصف مظلم » يعملون منذ طلوع  
الفجر حتى المغيب ، عملاً مضنياً ، متواصلاً ، يتفاضون عليه  
أجراً زهيداً يكاد لا يكفي ثمن الخبز « يمشون حفاة ، في قمصان  
وسراويل مهترئة ملوثة بالأصبغة ، يستحرون في النسج بشكل  
ضار مغلق » .

ففي هذا المكان الذي ينطفيء فيه العمر والبصر تمر الأيام ،  
وتنسب الساعات بين الكلل والملل من حياة لا غاية لها ولا طائل  
تحتمها ، ولم يكن الولد عمر يعلم أن مهنة النسيج ستكون حلقة  
من حلقات بؤسه إلا يوم صدم لأول مرة حين رق صاحب  
الورشة لتضرعات أمه وقبل أن يشغله عنده في القبو فقد « هبط

عمر درجات السلم الأخيرة حيث وقف ، فوجد نفسه في وسط القبو ، فنشبت إلى أنفه رائحة رطوبة شبيهة بأنفاس بهيمة فاصقت بوجهه ، فكاد الولد يخنق ، وكان القبو معتماً ، وفي الحال أسف عمر على عهد الأزقة حتى صار يفضل التسكع تحت المطر المهر على أن يخنق في هذا المكان ، فتردد ، وتملكه ميل جنوني للصعود على السلم والهرب . ولما اعتادت عيناه الرؤية في القبو المعتم وجد أن العمال ينظرون إليه شزراً ، تبدو عليهم جميعاً ملامح الإعياء والاصفرار فصاح عمر : إن المعلم أرسلني لأعمل هنا حلالاً للغزل .

في هذا القبو كانت تجرى حياة هؤلاء العمال ، حياة رتيبة ، كثيبة ، يتخللها بين وقت وآخر ومضات من المرح والانطلاق وسرعان ما يعود جو القبو بعدها إلى سابق حالته من الكآبة والاستسلام إذ ليس من السهل كما يقول محمد ديب « أن يعتاد المرء على الضحك » .

إن من يقرأ الرواية لا يسعه — مهما أوتى من التجلد والقدرة على إسكات الضمير الإنساني — إلا أن يشفق على هؤلاء المساكين الذين سدت في وجوههم منافذ الأمل ، وضاعت سبل العيش ، وتوزعهم اليأس القاتل من جهة والتمرد الخافت الحائر

من جهة أخرى . فإن العم صقائي يقول لرفيقه بلهجة الحزين :  
 ما أكثر ما نتألم في هذه الدنيا ! فيجيبه رفيقه حمدوش : ماذا  
 يفيدنا أن نؤدى عملنا بأمانة ، وماذا جلب لنا هذا العمل . . .  
 الريح . . . أما رفيقهما عباس فلم يكن أقل يأساً فهو بعد أن  
 استعرض حياته قال : « من الجائز أننا عرفنا بضع ثوان من  
 السعادة ، ولكن كم إلى جانب ذلك من أيام سوداء ، لقد  
 حرمتنا كل شيء ، وندنا نصيبنا من اليأس وضربات القدر ،  
 فقد لقينا لقاء دقائق من الفرح محيطاً من المرارة . . . إن نفوسنا  
 شبيهة بهذا القبو يعيش الأحرار على سطحه وفي باطنه الأرقاء ،  
 وليس كسب قطعة نقود إضافية هي التي تهتم العبد الرق  
 ولا المطالبة بكسرة خبز . . . ! »

ولم يكن هؤلاء العمال كلهم واعين لحالتهم ، شاعرين  
 بانحدارهم إلى قرارة العبودية الاجتماعية ، بل كان منهم من  
 يعتقد أنهم خلقوا هكذا ، وليس من الممكن أن تكون إلى  
 جانب حياتهم أفضل وأحسن ، فهم يعيشون في قدرية مريحة  
 جعلت بعضهم يقول : « إن الله قد ولي وجهه عنا ، وكل شيء  
 تردى ، فإن الفقير غدا أفقر من ذى قبل والخبز أغلى ، تلك  
 هي حالتنا . . . إننا سننال نصيبنا في العالم الثاني ، يجدر بنا

ألا ننتظر من هذه الدنيا شيئاً .

على أن هناك فريقاً آخر أكثر وعياً وأصدق حساً ،  
تضطرم في نفوسهم ثورة نفسية عارمة ، عنيفة يستشفون من  
خلالها أحداثاً هائلة تعيد إليهم إنسانيتهم وحقوقهم المغتصبة ،  
لم يقل أحدهم : « لقد هبطنا إلى الحضيض ، ولن نستطيع  
العودة إلى إنسانيتنا بالطرق العادية ، وسنجد على قلب العالم  
بل على إرهابه . . . إن شعبنا قد أهين وسيخرج منه شيء  
هائل . » وتتجلى هذه الثورة في شخصية المناضل عكاشة كما  
تجلت في الروايتين السابقتين في حامد سراج ، ويرتفع عكاشة  
هذا في شكوه عن مستوى السخط النفسى والتمرد الفردى والتفريع  
المريز لبني قومه إلى مستوى الثورة القومية الشاملة ، فهو كزميله  
حمزة يتفوه بأقوال معبرة عن الحالة الراهنة وعن الأحاسيس التي  
تجيش في الصدور بقرب الخلاص فهو بعد أن كان يقول :  
« إننا لا نعرف من نحن ، ولعلنا المخلوقات الوحيدة في الدنيا  
التي لا تعرف من هي ولا أين تسير ، وإذا سألت أية بهيمة  
فهي تستطيع إفهامك ما تريد ، ولكن نحن . . . إننا نمشى  
حفاة ، تلوح علينا علائم الاستياء ، وتكاد أسماطنا لا تخفى  
شقاءنا ، وليس في رؤوسنا سوى الفتات وفي معدنا الدرن » إذ به

يقول بعد مدة : « أيتها الجزائر ! أين رجائك : من ذا الذى يوقظهم من نومهم ، إنه اليأس الشعبى الكبير ، إنه اليأس الشعبى الكبير ! »

وتظل هذه الأفكار فى ارتفاع تصاعدى حتى تتبلور فى فكرة إصلاحية شعبية تخرج عن نطاق الأفراد والفئات والطبقات إلى نطاق قومى واسع يشمل الجزائر بأسرها ، لنستمع إلى العامل حمزة يخاطب رفاقه : « إن السياسة شىء معقد يعالجها كل حسب طريقته ، ويقول بعضهم إنه يجب إعطاء جميع الأراضى للفلاحين ، ويرى آخرون أن يعطى الفلاحون كل شىء وستقسم بين أبناء الشعب بالعدل . وهكذا ترى أن السياسة تهتم برفاهية الشعب » فيجيبه عكاشة المناضل « إن الشعب هو ملكوت السموات ، وهو روح الدنيا النقية ، ولم يعلم أحد الشعب ، ومع ذلك فهو يحمل الحقيقة فيه ، تلك الحقيقة التى يبذرها بسخاء » .

ومن الغريب أن القارئ مع علمه بأن الحرب الدائرة اليوم فى الجزائر هى نتيجة حتمية للحالة التى كان يعانها الجزائريون ، فإنه لا يلاحظ فى رواية « النساجة » أية إشارة إلى تلك الحرب ، كما أنه لا يلاحظ عند المؤلف أية نزعة صريحة لإبداء فكرة

أو مذهب بل ظل كغيره من كتاب الجزائر - ضمن العمل الفني -  
 ينتقل إلينا عن طريقه واقع أمته وقضايا حياتها في إطارها  
 الإنساني دون اقتراح الحلول واستباق الحوادث ، وأعتقد أن  
 التعبير الجميل يفعل في النفوس ما لا يفعله سوق الحجج وبسط  
 البراهين ، وتعتمد الإقناع .

إن محمد ديب وصاف ماهر ، وهما من مخرجي ، يجيد  
 التصوير الواقعي ، ففي رواياته صور قوية مكثفة تنطبع في  
 في مخيلة القارئ وتطفو على ما عداها من الحوادث والأشياء ،  
 ولعل من أروع ما تضمنته روايته « النساجة » منظر مواكب  
 المتسولين التي أتت من الجنوب إلى مدينة تلمسان بعد أن  
 جردتهم السلطات والقانون الاستعماري من أراضيهم فقد أفاق  
 التلمسانيون يوماً فإذا بهم يصطدمون بهذه « الأشكال التي تشبه  
 الأطياف الغربية ، كانت بجباهير المتسولين تزحف ببطء  
 رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً فيحتلون المدينة ، وكان أكثرهم  
 سليمى البنية ، ولكنهم من البؤس والإعياء إلى حد أنهم لم يعودوا  
 بالنظرات الشذراء التي تضمهرها لهم عيون السكان ، وكانوا  
 يبدوون إزاء المعاملة التي استقبلوا بها وقساوه رجال الأمن اللامبالاة ،  
 وكان قوة نجهل مصدرها تدفعهم إلى الأمام ، وهكذا انتشروا

بشكل غريب مجرد عن الحياة ، فيه تردد وفيه سأم . . . وكان الناس يتساءلون عما إذا لم يكونوا قد تسللوا منذ أمد قريب حتى عجت بهم مسالك البلد الرئيسية وشوارعها وساحاتها ، لا شك ! في أنهم تسربوا إلى المدينة بفضل الأيام الماطرة السابقة .

ولم يعرف أحد الأسباب التي جذبتهم إلى المدينة ، هل جاءوا لطلب عيش افتراسي ؟ وعلى تخمين أنهم واجدوه ، فإنهم لم يتركوا البلد عائدين إلى أبحارهم التي لفظتهم فقد توطدوا في قلب المدينة ، ولذا لم يفهم الناس شيئاً هل يسرون فيها بدافع التطفل في الظاهر ، لا ، فهم يأتون ثم يحلون حيث يطيب لهم المقام ، ثم ينظرون إلى الأشياء بعيون مطفأة . . . »

« على أن في هؤلاء المتسولين وداعة وبعد عن الأذى ، ومن الإنصاف القول إنهم لم يقترفوا إثماً ، فهم ينظرون إلى المارة كبيرهم وصغيرهم بشيء من الزهد ، إنهم ينتظرون ، ماذا ينتظرون ؟ لا نعلم ، ثم يعودون إلى تسكعهم ، إنهم ينامون حيث يفاجئهم الظلام ، حتى إذا قص الهواء الجحوش شد كل واحد منهم أظماره على جسمه ووضع رأسه على حجر أو درجة نام . »

« كانوا يشاهدون في كل مكان ، في الأحياء السفلى من

المدينة ، وتحت الأفاريز ، وعلى مقربة من الأسوار ،  
وأمام الحمامات وعلى الأدراج ، وفي أسفل الجدران التركية على  
طريق « المشوار » وفي مداخل الفنادق ، ففي كل الأسواق  
تتنقل أشكالم المهلهلة القائمة القدرة ، يجرون أنفسهم في كل  
مكان ، يحمل بعضهم بعضاً على الظهر ، حتى إذا عجزوا  
عن السير ارتموا على الأرض لاهثين من التعب ثم يصطفون على  
الأرصفة ، ولم تكن ما تضمنته واجهات المخازن من طرف في  
نظرهم سوى توافه لا يؤبه لها ، وماذا يهمهم فإنهم قد ضربوا  
جذورهم وانطفأوا كما ينطفئ المشعل الحامد » .

وكان يخيل للناس بين وقت وآخر أنهم يفتشون عن شيء  
أضاعوه ، وكانت حركاتهم تشبه الزحف الخفي ، ثم لا يلبثون  
أن يعودوا إلى سكينتهم الأولى ، هم لا يمدون أيديهم للاستجداء ،  
وكانوا في الأصح متكديسين فوق بعضهم ، يجلسون القرفصاء في  
أماكنهم التي اختاروها ، هذا إذا لم يزحزحهم أهل المدينة عنها ،  
يلحظون منها حركات المارة . . حتى إذا حاول أحد أن يتصدق  
عليهم وجب أن ينحني ليدس قطعة النقود في باطن الكف » .

« لم يعد هناك أي حاجز يحول دون زحفهم المتلاحق الذي  
أوصل جحافلهم إلى الأحياء النظيفة والأسواق التجارية وأقسام

المدينة الشريفة « حيث بيوت الأوربيين التي تعكس أنوارها في الليل الحياة السعيدة الهادئة » يهيمون دون هدف ، ودون أن يأبهوا بالمطر المنهمر الذي يغرقهم كالمرق ، كانوا يهيمون وأحداقهم مية ، وأيديهم تستجدي بحركة عفوية ، ينفرون من محابهم كامدى الألوان ، ثم يعودون بعد لحظات من حيث أتوا كأن العدم الرطب قد قاءهم .

« وكثر عدد الأموات بينهم ، وكم مسكين لفظ نفسه الأخير دون دمدمة . . . وكان يفاجأ بعضهم وهو يزحف دون وعى نحو محباً مجهول ، ثم يغيبون عن الأنظار . . . إن هؤلاء الناس يودعون الدنيا باحتشام مثالي كأنهم بذلك يعتذرون عن موتهم » .

إن هؤلاء المساكين الذين أثاروا اشمئزاز الأوربيين وتقززهم قد وجدوا عند مواطنيهم بعد أن زال الدهش والاستغراب من غزوهم المفاجئ كل عطف ورعاية ، وعندها تجلى التماسك الاجتماعى والشعور الأخوى الذى يوحد القلوب والمشاعر ويربط بين أهل الوطن الواحد برباط الكره للغريب المحتل أصل هذه الشرور والبلايا ، فقد كنت تسمع عندما تجمع الناس حول رجال الأمن يريدون إجلاء المتسولين عن البلد ، فكأن وجودهم

قد ذكر مواطنيهم بما هم فيه من بؤس وبلاء : « إن هؤلاء  
 المخالقات ليسوا بحشرات ، وإنما الحشرات هم الذين غزوا هذه  
 البلاد فجعلوا إخواننا هكذا . » وقال آخر : « صدقوني  
 يا إخوتي ! إن شقاءنا ليس ابن يومه ، فهو آت من بعيد ،  
 ولم القلق والذعر ! ؟ » حتى إن عانية أم الولد عمر كان لها نصيب  
 في التعبير عن شعورها فهي القائلة عند ما هب أهل البلد لفتح  
 أبواب دورهم لمساعدة إخوانهم المشردين : « هم إخواننا بالدم ،  
 وضيوف أرسلهم الله إلينا ، فأهلا بهم وسهلا ، نحن نضيفهم  
 ولو لم يكن عندنا سوى الماء ، فيعلمون بذلك أننا محرومون  
 مثلهم ، إن الرحمة لا تزال موجودة في هذه الدنيا ، ولن يقال  
 إننا طردنا أمثالنا لأننا نملك مأوى وهم لا يملكونه . »

إن هذا التساند العاطفي هو نقطة تحول في حياة الشعب  
 الجزائري ، بل التباشير التي تسبق الصبح المضيء ، وهذه كلها  
 دلائل على الوعي واهتزاز القلوب بالأمل ، أمل الخلاص من  
 العبودية والعودة إلى اعتلاء السلم الذي انحدر منه الجزائريون  
 إلى هوة اليأس والاستكانة والهوان ، فبعد أن قال العامل عكاشة :  
 « إن الحياة هنا كالرمال تملأ بها الأيدي ولا يبقى منها شيء »  
 وبعد أن يقول عباس : « إن حياتنا من الضيق والخرج بحيث

تجن بها بقعة ، إن حياتنا لسيئة سيئة جداً « أصبحنا نسمع حمدوش العامل يقول بلهجة العزم والجد : « كفانا عيشاً كما عشنا ، ولا قيمة بعد اليوم إلا للعمل » .

تلك هي الطلائع الشعورية التي مهدت للثورة التي يشب أوارها على أرض الجزائر ، ولاشك في أن شعب الجزائر التي قاسى من ألوان الحرمان والذل ، وتحمل ما لم يتحملة شعب على وجه الأرض من الاضطهاد والتنكيل ، لن ترهبه هذه الحرب الإفنائية بويلاتها وتضحياتها وسيظل مثالا للتضحية والجهاد ورمزاً للقدرة الإنسانية الجبارة التي تفوق كل تقدير ومقياس .

ولا أدل على هذه الروح المتوثبة من ذلك الحوار الذي جرى بين الولد عمر والعامل الثائر حمدوش والذي أودع فيه محمد ديب فلسفة الروح الجزائرية التي تقوم عليها دعائم الثورة :

— ليس المراد أن تحتقر الناس ، فهم لا يريدون أن تشفق عليهم ، أنت تريد لهم الخير في حين أنهم متعطشون للعدالة .

— ياله من استعداد سقيم ، هل تتصور سوء تأثير ذلك

عليهم ، إنه لا يرفع عن كواهلهم ذرة من البؤس ، إن الشفقة  
لعمل سهل . . .

— أنت تكره الناس !

— أريد أن يتعلموا ألا يطلبوا سوى سعادة واحدة . . .

الحرية .

— هناك سعادة العيش . . . العيش ولا شئ سواه .

— إنك تهدي !

— مع أن الناس جميعاً يرغبون هذه السعادة .

— ليس في هذا روح ، إن ما يلزمنا أن نتعلم من جديد

كيف تشعر بأننا أحرار ، ثم إن التعطش للعيش ينبت بعدها

من جديد .

— يجب أن نفتح أعيننا ونرى .

— إن العالم قاس . . . إن جميع الذين ينزعون إلى أفكار

سامية سمحة سيسحقون ، فلا عجب إذا رأينا الإعياء يستولى

علينا قبل بدء المعركة .

— لا تنس إن إخواننا رزقوا نعمة التكيف مع الحالات

كلها ، وأن شقائهم لا يؤثر فيهم أبداً .

— لست أدري ، إنهم في الواقع ينجلون ، فهم يكتمون

شعورهم ويخفون آلامهم .

- كلا ! هذا غير صحيح ، إن قلوبهم ميتة .

- يجب أن توقظ هذه القلوب !

- إن ما يلزمنا هو أن نتعلم الحقد ، وأن نكون قنساء القلوب .

- هناك أناس يساعدون أمثالهم على أن يصبحوا أحسن حالا .

- ستكون واحداً منهم .

إن محمد ديب روائى موهوب ، وهو على عادته يجيد

التحليل والكشف عن خفايا النفس الإنسانية كما أنه يجيد تصوير

الشخصيات والأوساط الاجتماعية والمناظر المادية والعوارض

الجوية ، وأسلوبه في ذلك لا يقل نصاعة وحيوية عن أبطال

رواياته مما يجعل محمد ديب في طليعة كتاب الجزائر المعاصرين .

لنذكر بعض هذه الصور الموفقة ؛ قال يصف عانية

أم الولد عمر وهي نائمة : « نامت وقد أسندت ظهرها إلى

الحائط ، لقد عقصت منديلها ورفعته إلى قمة رأسها كصرة

حمام ، وهبط فكأها وامتدت شفتاها في حركة نفخ واسعة » .

قال يصف الريح في يوم عاصف : « كانت الريح

تهب من الغرب تارة ، ومن الشرق أخرى ، تقفز قفزات كبيرة

محاولة تكسير المدينة ، ولكنها كانت تصطدم في ثورتها العمياء

العنيدة بجميع المنافذ فتجدها مقفلة منيعة .

وقوله : « كان زئير العاصفة يتلاشى في المجال الليلي » .

وقوله : « كان الضباب قد احتضن المدينة طوال الليل ،

ولما أشرق الصباح سطعت شمس فتية في سماء كانون الثاني كأنها

تلحس الأسواق » ومن تشبيهاته في وصف متسول : « وكان

بعضهم وقد تجمع على نفسه كالقنفذة ينام بلا انقطاع » .

وقوله في وصف مطر غزير : « وكان المطر المتواصل يهز

شعوره النهرية » .

وقوله في وصف العامل شول : « وكان شول الرجل

الألط<sup>(١)</sup> ، النحيل ، ذو الوجه الترابي والشعر المقصوص يبدو

كأنه مقشّة قديمة نتف قشها » .

وقوله في وصف عمر في ورشة الغزل : « كان يجر الحيوط

كما لو كان يسحب أمعاء خروف مبعوج » .

وقوله في وصف ولد ميت مسجى في كفنه : « لقد تبين

لعمر أن الكفن طويل جدا ، كأن الموت قد مط العامل

الصغير وجعل منه الرجل الذي لن يكونه » .

إن رواية محمد ديب التي تصور ولادة روح الشعب

الجزائري لتغني عن مئات الكتب والأبحاث التي كتبت عن

الجزائر وقضية الجزائر .

(١) من سقط أسنانه .